

الصهيونية:

اغتراب التاريخ في الإيديولوجيا

أحمد برقاي (*)

يكاد يجمع أغلب مؤدجي الحركة الصهيونية، رغم الأطياف التي تميّز بعضهم عن بعض، أنّ «التاريخ اليهودي» يخضع لغائية مسبقة، فلا شغل للتاريخ إلا أن يعيد نفسه عبر «وقائع» و«أحداث» لتحقيق غاية، هي في الأصل قابضة في عقل إله، قبل أن يجري التاريخ ويصبح تاريخاً.. فليس التاريخ - عندهم - إلاً موظفاً صغيراً لدى وعد إلهي؛ غاية التاريخ القصوى أن يحققه. وإذا ما تحققت فكرة الوعد الإلهي حاز التاريخ على اكتماله. والوعد الإلهي أرضاً موعودة بمشيئة إلهية. لقد تحقّق الوعد الإلهي في لحظة غارقة في القدم؛ لكنّ «الأغيار» قد عاندوا الإرادة الإلهية؛ وسطّروا تاريخاً آخر للأرض الموعودة - فلسطين، تاريخاً يمتدّ من القرن السادس قبل الميلاد حتى القرن العشرين الميلادي. إن ستة وعشرين قرناً من الزمان لهو زمان زائف، بشعوبه ووقائعه وحضارته لا لشيء إلاً لأنه تاريخ آخر.

وجود الآخر في الأرض الموعودة وجود مؤقت. وإذا كان وجود الآخر نفيّاً «لليهودي»، فإنه في الوقت نفسه، قد ولّد فكرة الحنين إلى الأرض الموعودة. وهي الفكرة، التي يقول الصهيوني عنها، أنها قد رافقت اليهودي عبر تاريخه الطويل، وستقوم بدور المحرك لتاريخه، وحالت بينه وبين الاندماج مع من عاش بين ظهرائهم. يرسم الصهيوني شموئيل أيتنفر الصورة التالية لتاريخ اليهود: «الصلوات بين «الشعب» اليهودي وأرض إسرائيل تكون واحدة من أغرب الظواهر التاريخية في تاريخه الطويل. وهي ظاهرة قد لا نقع على نظير لها في تاريخ أيّ شعب من الشعوب. هذا الشعب - «أي اليهود» شأنه شأن كل شعب محمّل بالتاريخ، تضعيع بداياته بين الأساطير الملحمية والمعطيات المتناقضة، ولكن حساسيته التاريخية الحادة ومحافظته الأمانة على تراث

(*) رئيس قسم الفلسفة في جامعة دمشق.

الأقدمين... والأهمية المعطاة لأحداث ما قبيل الخروج من مصر في إخراج شخصيته القومية إلى حيز الواقع، أتاحت كلها لشعب «إسرائيل» أن يكون، منذ عصر بعيد، وجداناً قومياً عميقاً. هذا الوجدان عبّرت عنه التوراة قبل سواها، فكان له على طبع الشعب أثر حاسم خلال سائر القرون».

هذا الوجدان القومي سيرافق اليهود على مرّ التاريخ وتظلّ فلسطين، - كما يقول أيتنفر - هي الأرض الموعودة. ويمسي وجود شعب إسرائيل في أرضه متعلقاً بنقاوة دينه وكمال خلقه. تظهر قوة هذه الأفكار عند «احتلال» البابلي «لأورشليم» وهدمهم الهيكل عام 586 ق.م. وهي الكارثة الأولى.

تجيء الكارثة الثانية بتدمير الهيكل الثاني على أيدي الرومان عام 70. فتزيد من شوق اليهود إلى الخلاص، في فلسطين وفي المنفى.

ثم كان الفتح العربي لفلسطين في القرن الثامن، فسَهّل العلاقات بينها وبين يهود المنفى، وحافظت البلاد على مكانها الممتاز في الوجدان القومي، وفتحها لا يشكل حقاً فيها. وكان الوعاظ والمتصوّفة يفسرون خرابها على أنه أمانة من أمارات الخلاص المقبل: فذلك التراب لا يؤتي ثماره إلا لملاكه الشرعيين. إلى ذلك، كان ثمة تسليم ضمنى بأن إقامة اليهود في الخارج وإن طالّت أجيالاً، ليست في عين الشرع سوى منفى مؤقت، كانوا فيه مضطهدين أو محترمين.

ثم يتابع أريتنفر رسم اللوحة قائلاً: «أما التعبير عن الحنين المضطرب إلى الوطن الضائع، كما البرهان الثابت على استمرار الضيق بالمنفى، فنقرأهما في الحركات الخلاصية»، إذ إن يقظة هذه الحركات ترافق وضع الأقلية ودينها في العصور الوسطى.

وأما الاضطهاد الذي مورس على اليهود في أوروبا فكان ينظر إليه اليهود بوصفه آلام ولادة الخلاص. فكل تغيير في الوضع السياسي القائم كان يمكن أن يعني بداية النداء. لذا أيقظت الحروب الصليبية والغزو المغولي وفتح القسطنطينية أملاً مداره أرض «إسرائيل». ثم جاءت ضربة بالغة القسوة حلّت باليهود، هي طرد اليهود من إسبانية عام 1492م، فاقتلعت أكبر الجاليات اليهودية في أوروبا من جذورها وأوسعتها تحطيماً، لكنها أدّت إلى نهضة روحية، فتركّز العديد من اليهود في فلسطين أوحى بأن مغزاه هو اقتراب الخلاص، لذا قامت محاولة لأعطاء وضع الأمة الديني طابع القداسة بالعودة إلى الرسم الكهنوتي في الأرض المقدّسة.

وخلال النصف الثاني من القرن السابع عشر جرى ردّ الأمل بخلاص «إسرائيل» في العودة إلى صهيون، فكانت استجابة اليهود إلى ملك مخلص هو شبتاي زفي، استجابة عبرت عن قوة الأمل في العودة إلى بلاد «إسرائيل».

وفي القرن الثامن عشر هاجم أتباع التنوير الأديان، وظهرت نزعة الإندماج لدى اليهود، ولكن هؤلاء لم يكونوا إلا أقلية في أوروبا الغربية والوسطى، ولم يكن لهم

وجود في أوروبا الشرقية ولا في أفريقيا الشمالية ولا في الشرق الأوسط، وبدا فشلها ظاهراً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث ظهرت الصيغة الجديدة لعودتهم إلى أرض إسرائيل - ألا وهي الصهيونية⁽¹⁾.

يشير هذا النص الصهيوني النموذجي إلى الصراع بين حدّين: فكرة الخلاص والعودة من جهة والتاريخ الواقعي من جهة أخرى. بل ويقوم التناقض بين إرادتين إرادة الفكرة العنصرية على الزوال وإرادة التاريخ المنافية لهذه الفكرة.

وبظهور الصهيونية واحتلال فلسطين تنتصر الفكرة على التاريخ. وفي هذا كلّ لم يطرح الصهيوني على نفسه الأسئلة الصحيحة:

ترى لماذا كانت الصهيونية ظاهرة أوروبية؟ ولماذا ساعد الاستعمار الأوروبي الصهيونية على احتلال فلسطين؟ وفي عدم طرح هذين السؤالين إنّما يريد أن يبقي الصهيونية و «إسرائيل» خارج التاريخ.

أجل لماذا تحوّل الغربي «اللاسامي» إلى مناصر لليهودي «السامي»؟ ولماذا انتصرت الصهيونية في عصر الاستعمار ولم تنتصر قبل هذا التاريخ، إذا كانت فكرة الخلاص على هذا النحو من القدم؟.

الصهيونية كظاهرة أوروبية نشأت زمانياً مع المرحلة الإمبريالية الأوروبية. واليهودي الأوروبي إنما طمح لمكان له في التركة العثمانية. يقول لنا التاريخ ما يلي: منذ أن استقل محمد علي باشا بمصر، راوده طموح وراثته الدولة العثمانية، وبدأت في الأفق إمكانية ولادة دولة جديدة في الشرق العربي وخاصة بعد أن وصلت جيوش إبراهيم باشا إلى أبواب الإستانة.

الدولة العثمانية العاجزة عن وضع حدّ لطموحات محمد علي أهابت بالإنكليز، الذين هم الآخرون وجدوا في حركة محمد علي عرقلة مخطّطهم في المشرق. ففقدوا على طموحات حاكم مصر، وفي عام 1882م احتلوا مصر.

بعد الحرب العالمية الأولى وإنهزام الدولة الطورانية، نكثت بريطانيا بوعودها للعرب واقتسمت المنطقة مع فرنسا. وأصدرت وعد بلفور، وقد نصّت المادة الثانية من صك الانتداب على فلسطين: إن من مسؤولية الحكومة المنتدبة خلق الشروط الإدارية والاقتصادية التي تكفل إنشاء «الوطن القومي اليهودي». وتحدّثت المادة الرابعة من صك الانتداب عن حق الجمعية الصهيونية، والتي أصبحت الوكالة اليهودية، في الشورى ومعاونة الإنكليز في إدارة شؤون البلاد. أمّا المادة السادسة فأوصت بتوفير سبل الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتمليكهم أراضي الدولة والأراضي البور. ثم أوصت المادة السابعة بحق اليهود في الحصول على الجنسية الفلسطينية.

(1) شموئيل أيتنفر: «الشعب اليهودي وأرض إسرائيل» من كتاب من الفكر الصهيوني المعاصر، بيروت 1968، ص 49 - 41.

في عام 1920م عُيِّن صموئيل مندوباً سامياً في فلسطين وعيّن اليهود في مراكز عليا بدوائر الجهاز الاستعماري، واعتبرت اللغة العبرية لغة رسمية في فلسطين، إلى جانب اللغة الإنكليزية والعربية.

وكي يسهل على بريطانيا التصرف بفلسطين، لم تعيّن حكومة للبلاد. وبفضل بريطانيا ارتفع عدد المستعمرين اليهود إلى فلسطين من خمسين ألفاً عام 1918م إلى ستمائة وخمسين ألفاً عام 1947. وارتفعت ملكية اليهود من الأراضي 650 ألف دونم عام 1918 إلى مليونين وسبعة وخمسين ألف دونم من مساحة فلسطين البالغة سبعة عشر مليوناً وأربعة مائة وخمسة وثمانين ألف دونم.

هذه الوقائع المعروفة، هل كان يمكن أن تتمّ لولا استعمار بريطانيا لفلسطين!.

لقد أدركت بريطانيا بخبث شديد أهمية تحويل الحركة الصهيونية إلى وسيلة من وسائل سيطرتها على المنطقة. أي إنّها لم تقدّم حلاً لمشكلة يهودية آنذاك لأن مشكلة كهذه لم تعد قائمة أصلاً. بل حلاً لمشكلاتها في المنطقة. في وقت فقد المستعمر إرادته في تحقيق طموحاته الوطنية. بل قل إن مصالح الغرب الإمبريالي قد خلقت لليهود في فلسطين مشكلة دائمة مع السكان الأصليين للبلاد. لأنه على دراية كاملة بأن خلق جسم غريب في منطقة ذات هوية عربية سيبقي بؤرة الصراع قائمة. وفي تكوين الغرب الإمبريالي دولة لليهود في فلسطين قد حوّل العلاقة بين الغرب ويهود فلسطين إلى علاقة السيد بالعبد. الغرب هو السيد الذي لا فكاك للعبد من سيادته، فإسرائيل وجدت بفعل قرارٍ خارجي وستظل موجودة ما دام هذا الخارج ضامناً لوجودها.

قد أوجد تاريخ أوروبا «إسرائيل» في وقت كانت العرب فيه أمة مستعمرة. وظلت إسرائيل مستعمرة، بإرادة أوروبية - أمريكية. تقل أو تكبر وظيفتها وفقاً لشروط الهيمنة الأوروبية على المنطقة.

إنّ الصهيوني يعي على نحو ضمني وصريح أحياناً، أنه قد انتصر بفضل قرارٍ خارجي وإرادة الغير، وأنه مهاجر من الخارج احتل مكاناً لسكان هم الشرعيون، وأنه ما زال مرتبطاً بإرادة خارجية، وما زال عرضة لرفض شبه مطلق من قبل العرب والفلسطينيين، ولهذا كلّهُ فإنّ هاجس الاستمرار بالبقاء في فلسطين ما زال مسيطراً عليه. هاجس كهذا هو الذي يبقية عبداً في علاقته بالسيد الأوروبي - الأمريكي.

بل إن هذا الواقع يجعله الوحيد في العالم الذي يطلب الأمن من الآخر. بل ومن الآخر الذي يناصبه العداء. إنها لمفارقة حقاً، أن يطلب السارق للملك الأمن من صاحب الملك.

وهذا ما يجعل الصهيوني يفكر بمصيره فقط، دون التفكير بمصير الآخر الذي حاول نفيه مرتين، مرة في مستوى الطرد ومرة في مستوى اللغة، وهذا ما دحضه التاريخ إلى الأبد.

اغتراب اليهود في نفي الآخر

في البحث عن عصبية توحد بشراً متعددي القوميات والإقامة ويدينون باليهودية، خفّ الصهيوني لخلق وعي بالهوية خارج شروط تكوّننها الموضوعية.

ففكرة الوعد الإلهي والخلاص والعودة لا تستقيم إلا بوصفها فكرة شعبٍ واعٍ لهويته. ولكن أنى لليهودي أن يعي هويته أنه شعب خارج مقومات الشعب؟.

كان لا بدّ للصهيوني أن يؤكد التمايز عن الآخر. وليس الآخر هو العربي بل هو جماع الإنسانية. تمايز كهذا ليس موجوداً في الواقع، إذ لا بدّ من البحث عنه في عالم آخر، إنه عالم التوراة. في التوراة وحدها يجد الصهيوني جواباً على سؤال الهوية. ففي عصر نشوء الوعي القومي وتكوّن الأمم، أبرز فلاسفة الأمة عوامل تكوّناتها: الأرض، اللغة، التاريخ، المصالح الاقتصادية، إلخ. وهذه العوامل الضرورية لا معنى لها إلا بوجود جماعة مستقرّة تحوز عليها، ولمّا لم يجد الصهيوني ما ينطبق على اليهود من هذه العوامل راح يبحث عن طريقٍ آخر، فلم يجده إلا في التوراة.

التوراة إذاً عامل توحيد بوصفه تاريخاً خاصاً ذا مصدرٍ إلهي مقدّس، فقام بعملية وصل تعسفية بين كتابٍ قديم وحاضر مختلف.

ففي غياب الأرض الواقعية - حيث توزّع اليهود على أصقاع مختلفة، خلق الأرض الوهمية - الأسطورية. أرض يحنّ إليها، إنه يقرّ، أي الصهيوني، بغربة هذه الصلة، لكنه يحوّل هذه الغربة إلى امتياز. يقول شمعون بيرس: «الصلات بين الشعب اليهودي وأرض إسرائيل واحدة من أغرب الظواهر في تاريخه الطويل. فالتوراة هي الوطن الأم للشعب اليهودي»⁽²⁾.

فالانفصال الواقعي بين الأرض والتاريخ يزول عبر الترابط بين الأرض والتوراة. في هذه النقطة لا يختلف الصهيوني العلماني عن الصهيوني المتدين.

الأرض الموجودة في التوراة توحد اليهود من أجل العمل للعودة إليها، لأنّ «ليس لليهودي في أرض الشتات وجود حقيقي»⁽³⁾ وفي العودة تتحقّق وحدة التاريخ والجغرافيا، ولكن الأرض الموعودة مسكونة بأصحابها، بآخر لم يرتكب يوماً بحق اليهود أي نوع من الاضطهاد على غرار الغربي، ولا مشكلة هنا، لأن التوراة قالت كلمتها النهائية بهذا الصدد. لم يكن الأمر يحتاج إلا إلى جملة «الآخر غير موجود». الموجود صار غير موجود. أي أن وجوده الواقعي ليس حقيقياً، إنه مجرد وجود عابر لا يحوز على اعتراف التوراة، أو أنّ أرض فلسطين خالية حتى من وجود الفلسطيني. حتى في الوقت الذي بدأ فيه الفلسطيني يكافح، ظل نفي الفلسطيني قائماً. ففي عام

(2) انظر، شمعون بيرس: يوم قريب ويوم بعيد، من كتاب الفكر الصهيوني المعاصر، ص 137.

(3) انظر، الفكرة الصهيونية والنصوص الأساسية، بيروت 1970، ص 303.

1969م قالت غولدا مئير: «لم يكن هناك شيء اسمه فلسطينيون، متى كان هناك شعب فلسطيني مستقل في دولة فلسطينية.. ليست القصة هي أنه كان في فلسطين شعب فلسطيني، يعتبر نفسه شعباً فلسطينياً، ونحن أتينا ورمينا هؤلاء الفلسطينيين خارجاً وأخذنا بلدهم منهم، فإنه لم يكن لهم وجود. وفي الواقع، ليست هناك أية هيئة تمثل وتحدث بلسان ما يسمى الفلسطينيين»⁽⁴⁾.

«فإنه لم يكن لهم وجود». نفي مطلق، لكنه نفي لن يستمر طويلاً. لا شيء، إلا لأن التاريخ الواقعي أصدق من التوراة ومن الجمل الفارغة.

ويستفيق الصهيوني أخيراً على وجود الفلسطيني، ويعترف أن ظلماً قد لحق بالفلسطينيين. ولكنه في لحظة وعي مازوم لا يقوده اعترافه إلى الاعتراف بالحق الذي يملكه. فصار لديه وجود الآخر مسلوباً الحق بالوجود. أي إن وجود الفلسطيني وجود بذاته وليس لذاته. الوجود بذاته لا يحق له أن تكون إرادة تعين وجوده. بل هو بالذات - أي الصهيوني - هو الذي يقرّر صورة وجود الفلسطيني. إنه لنفي في صورة أخرى. فالفلسطيني لا يرى معنى لوجوده خارج فكرتي العودة والدولة. في العودة تصحيح لمجرى التاريخ، وفي الدولة امتلاك لحقوق المواطنة. يعلن الصهيوني قائلاً: «ولكن ما حصل قد حصل، ليس بوسعنا تغيير الماضي، ولكن حين تغدو الأوضاع موائمة، وتكون الآمال المعلقة كبيرة، فإن علينا نسيان الماضي لأجل الحاضر»⁽⁵⁾، هكذا يكتب بيرس في الشرق الأوسط الجديد وليس نسيان الماضي عند بيرس، إلا نسيان ماجرى، ومصادرة حق العودة، لم ينسأ أبداً أن الفلسطيني قد شرد، وهي لحظة وعي بوجود الآخر. ولكن «إن ما جرى القبول بها - أي بالعودة - فسوف تمحي الطابع القومي لدولة إسرائيل وتحيل الأغلبية إلى أقلية، وبالنتيجة لا مجال للقبول بهذا المطلب لا الآن ولا في المستقبل»⁽⁶⁾.

إنذا ما يقرّر حق الشعب الفلسطيني هو الطابع القومي للدولة «اليهودية» لا الشعب ذاته. وقس على ذلك فكرة الدولة الفلسطينية، التي يخشى الصهيوني عاقبتها. إذا ما الآخر - الفلسطيني، بمعزل عن حق العودة وتقرير المصير بدولة يحوز فيها على حق المواطنة؟.

بل ويبرز فقدان الآخر حقه حتى داخل الدولة التي تعطيه جنسيتها. فالفلسطيني لا يملك فيها حقوقاً ثلاثة: حق الإقامة وحق العمل وحق المساواة⁽⁷⁾.

(4) إسرائيليون يتكلمون، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت 1977.

(5) شمعون بيرس: الشرق الأوسط الجديد، ص 11.

(6) شمعون بيرس: المرجع السابق، ص 156.

(7) انظر، إسرائيل شاخاك: التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية، وطاة ثلاث آلاف سنة، دار بيسان، بيروت 1995، ص 14 - 15.

لا شك في أن وعياً جديداً بحق الآخر يشق طريقه داخل المجتمع اليهودي، لكنه وعي أقلية، فما زالت النزعة العنصرية العرقية - القومية هي النزعة الأكثر حضوراً في مجتمع مغلق على ذاته - إنه الغيتو الجديد.

ومرّت أخرى نسال: كيف تأتى لليهودي الذي عانى من التمايز العرقي في لحظة من لحظات تطوّر أوروبا القومي، أن يغدو عنصرياً - عرقياً؟ مرة أخرى الجواب في البحث عن عصبية تسعى لتوحيد ما هو قابل غير للتوحيد. فكما كانت الأرض الموعودة، عامل تجاوز غياب الأرض، فإن العرق الواحد تجاوز للإثنيات المختلفة التي ينتمي إليها اليهود. فاليهودي واقعاً هو سلافي وألماني وكردى وحبشي إلخ. الذي لا يجد بداً من العودة إلى التوراة، وإلى أسطورة السلالة ليقدّ هوية هي قائمة في الكتاب «وطن اليهود الأصلي». يقول أحد المؤدجين الصهاينة وهو غافني: «عنصر شعب إسرائيل هو أفخر العناصر لأنه تكوّن عن طريق انتقاء الأفضل في كل جيل، فأدم الأول خلقه الربّ بنفسه كان كاملاً في غاية الكمال، وقد كان لأدم أولاد كثيرون، وكان أحسنهم شات، وقد وقع عليه الخيار كي يستمر عنصر آدم الأول ويتكوّن منه شعب إسرائيل. وكان لشات أولاد كثيرون أحسنهم أنوش الذي اختير ليستمر العنصر.. وكان لنوح ثلاثة أبناء وأحسنهم سام، وكان أحسن أبناء سام أرفكشاد وأحسن أبناء أرفكشاد كان سليح، وهكذا دواليك. وكان لإبراهيم أبناء وهما إسحق وإسماعيل، وقد وقع الخيار على إسحق، وأبناء إسحق هم يعقوب وعيسو، وكان يعقوب هو الأفضل، وقد اختير ليواصل العنصر. وكان أبناء يعقوب كلّهم أخيار، ولم يكن من داعٍ لانتخاب واحد منهم»⁽⁸⁾.

هكذا تكوّن العرق الأفضل من بين جميع العروق، ولم يعد هناك حاجة بعد يعقوب لتكوين الأفضل، فكل اليهود - أحفاد يعقوب - جميعهم أخيار. وهذا العرق الأفضل، باختيار إلهي، عصي على الاندماج، بل وقاوم دعوة الاندماج حتى تلك التي ظهرت بين اليهود. لقد استمرّ العرق رغماً عن التاريخ.

من الصعب على من يعتقد بأنه من الأصل السلافي الأفضل، وأنه ينتمي إلى عرق حدّته الإرادة الإلهية، وأنه جزء من جوهر لا يتغيّر، ولا يبلى، إلا أن يناصب الآخر الكره. يظهر هذا الكره في علاقة المستوطن وأتباع غوش إيمونيم بالفلستيني، وهو موجود في كتاب نننياهو مكان تحت الشمس، كما يتعيّن في السياسة التي انتهجتها الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة.

لا شك في أنّ تعريف اليهودي وفق السياسة الرّسمية ذاتها يدحض هذا الإدعاء الإيديولوجي اللّاتاريخي لفكرة العرق المتسلسل من آدم وفق القانون الإسرائيلي - كما يقول شاحاك - يعتبر الشخص يهودياً: «إذا كانت أمة يهودية أو جدته لأمه أو جدّة أمه

(8) انظر، أحمد برقاري: أسرى الوهم، دمشق 1996م.

يهودية الديانة، أو إذا تحوّل الشخص إلى اليهودية بأسلوب ترضى عنه السلطات الإسرائيلية، وبشرط أن لا يكون هذا الشخص قد تحوّل عن اليهودية إلى أية ديانة أخرى، لأنّ السلطات اليهودية لا تعود تعتبره يهودياً في هذه الحالة»⁽⁹⁾ إذاً أين هو العرق الصافي والمختار.

ولكن الإنسان يصبح ذا امتياز أفضل إذا ما اعتنق اليهودية. ولهذا - يعلّق إسرائيل شاحاك قائلاً: «إن أفراد قبيلة في بيرو، إذا تحولوا إلى اليهودية، أصبحوا يعتبرون يهوداً، وصاروا مواطنين إسرائيليين ولهم الحق في الانتفاع بحوالي 70% من أراضي الضفة الغربية وحوالي 92% من أرض إسرائيل، المخصّصة رسمياً لمصلحة اليهود فقط»⁽¹⁰⁾.

أي مجرد أن يصبح الفرد يهودياً، فإنّ له الحق بمصادرة حق الآخر، بأرضه ومياهه وبيته.

نزعة عنصرية تقوم على الدين ما زالت تصرخ بثنائية السامي واللاسامي.

الثنائية الزائفة - السامي واللاسامي وإعادة إنتاجها

منذ أن ظهرت نزعة الكره لليهود في أوروبا، والتي أطلق عليها مصطلح اللّاسامية، والصهيوني يرى في كل معارضة للسياسة العنصرية نزعة لا سامية. وحين يقف العربي في وجه الصهيونية ويقيم تمايزاً بين اليهودية والصهيونية، يعلن الصهيوني كـ «نتنياهو» أنّ الهجوم على الصهيونية نزعة لا سامية جديدة. انطلاقاً من فكرة زائفة مفادها أنّ كلّ يهودي هو صهيوني بالضرورة. ولمّا كان كل صهيوني هو يهودي سامي، فإنّ العربي هو صورة أخرى عن الأوروبي اللّاسامي إذ يعاند الصهيونية.

والقول بأنّ النزعة اللّاسامية هي نزعة تمتدّ من القرن السادس قبل الميلاد وحتى اللحظة الراهنة، فكرة أيديولوجية صرفة إنما المراد منها أن تظلّ فكرة العداء للآخر قائمة طالما أنّ الآخر لن يكفّ عن أن يكون لا سامياً. هذه الفكرة الأيديولوجية، التي يدحضها التاريخ، تجعل الصهيوني متحفّزاً دائماً لمواجهة خطرٍ مزعوم عصي على الفهم. وهو خطر اللّاسامية.

فما هذا المرض المزمن الذي تعاني منه بعض الشعوب والذي لا شفاء منه والذي يدعى اللّاسامية؟

أهو من قبيل المعتقد الديني العصي على الزوال؟

فعلى مرّ التاريخ شهد العالم صراعات أثنية ودينية وقومية وأيديولوجية وطبقية وصراعات بين دول وحروب إلخ، ولكن ما من أحدٍ من المؤرخين أو العلماء

(9) إسرائيل شاحاك: المرجع السابق، ص 13 - 14.

(10) إسرائيل شاحاك: المرجع السابق، ص 12.

الاجتماعيين فسّروا هذا الصراع على أنه يقوم على كره مسبق. فالعداء بين الأمم والشعوب لاحق للصراعات وغالباً ما يزول بزوالها. والصراعات مجرد أن تفهم في حقل التاريخ الواقعي تنحي التصورات الميتافيزيقية جانباً.

لكن الصهيوني مصرّ على تفسير التاريخ بفكرة خارج التاريخ ألا وهي العداء للسامية.

إنّ العربي بعامة عدوّ للصهيونية بلا شك، لكنه لم يحمل في يوم من الأيام عداء قبلياً لليهود. وهو إذ يقيم تمايزاً بين الصهيوني واليهودي فله أسبابه الثقافية والتاريخية والواقعية. في المستوى الثقافي الديني، فإنّ اليهودية في نظر العربي المسلم دين سماوي شأنها شأن المسيحية والإسلام. وأغلب ملوك اليهود هم في الثقافة العربية الإسلامية أنبياء. واليهود فضلاً عن ذلك من أهل الكتاب، ولهذا ترى أسماء ملوك اليهود أسماء منتشرة عند العرب كموسى وإسحق ويعقوب وداود وسليمان إلخ. واستمرار العرب بتسمية أولادهم بأسماء ملوك اليهود حتى الآن، أي بالرغم من ظهور الصهيونية واحتلالها فلسطين هو دليل على غياب النزعة العدائية لليهودية.

ما الذي سيقول الصهيوني لمؤرّخ عربي معاصر كتب يقول: «وجاء داود وتقدّم صفوف المقاتلين، وداود بإيمانه بالله وعزيمته الصادقة تقدّم، وقتل داود جالوت.. وهزم الكنعانيين، فإن إيمان داود بنصر الله هو الذي دفعه لقتال هذا الجبار»⁽¹¹⁾.

لماذا يقف مؤرّخ عربي إلى جانب داود اليهودي متعاطفاً معه ضد جالوت الكنعاني و«الكنعانيون» في وعي العربي أجداده؟

على المستوى الواقعي - التاريخي الحديث والمعاصر - ناهيك عن القديم - هاجر مائة ألف من يهود أوروبا إلى الدولة العثمانية بما في ذلك الولايات العربية. وكان نظام الملة حامياً لليهود وغيرهم من الملل. ولقد كان يهود العراق مستقلّين في شؤونهم الدينية وإدارة مؤسساتهم الخيرية وطُبّق عليهم بعد عام 1932م نظام الخدمة الإلزامية أسوة بالعراقيين كافة، وظلّ اليهود في سوريا يحتلّون مراكز هامّة في التجارة والحرفة قبل أن يقفوا فريسة الدعاية الصهيونية. وكان منهم نائب في البرلمان عام 1936 - 1947م، وقد استنكر قرار تقسيم فلسطين وقام يهود دمشق وحلب خلال حرب 1948 بجمع التبرّعات للشعب الفلسطيني. وكذا الأمر في لبنان الذي عاش فيها عام 1924م 6261 يهودياً وكان المجلس المحلي في بيروت يتولّى إدارة شؤون الطائفة اليهودية. فكان منهم التّجار والصيارفة والحرفيون والموظّفون.. إلخ، وسكن مصر عام 1947م 70000 يهودي معظمهم في مدينتي القاهرة والإسكندرية وعاشوا متساوين في الحقوق والواجبات، ولم يعرف في تاريخ مصر أن قامت أي حوادث طائفية.

وكان يعيش في اليمن في مطلع القرن العشرين 30 ألفاً وبلغ عددهم عام 48 ما بين

(11) إبراهيم المسلم: لمحات من القضية الفلسطينية، ودور الملك عبد العزيز آل سعود، الرياض 1985م، ص 30.

45 - 50 ألفاً، وقد تمتّعوا بقدر من الاستقلال في إدارة شؤون حياتهم وعباداتهم، وعاشوا في المدن اليمينية وأقام بعضهم بين القبائل ولم يتميزوا أبداً إطلاقاً في عاداتهم وتقاليدهم وزيمهم عن أهل البلاد. وبرعوا في إطار الحرفة كالصياغة والتطريز والزخرفة وصناعة الأسلحة وسك العملة.. إلخ، وظلّوا بمنأى عن الصراع بين الأئمة الزيدية والدولة العثمانية. وعاش يهود ليبيا، الذين قُدّر عددهم 1938م بـ 30 ألفاً بيسر نسبي وكانت نسبة التعليم عندهم عالية. أمّا في تونس التي بلغ عدد اليهود فيها عام 1946 مائة وخمسة آلاف فقد شهد اليهود فيها ازدهاراً كبيراً - وتضامناً مع حركة الدستور الجديد من أجل الاستقلال، واستلموا بعد الاستقلال مناصب مهمة ومنحوا حق الانتخاب والترشيح في المجلس التأسيسي والمجالس البلدية. ولم يكن وضع اليهود في المغرب بأقلّ جودة منه في تونس، وقد بلغ عددهم عام 1947م حوالي 233 ألف تقريباً، معظمهم سكّان مدن وثلاثهم في الدار البيضاء. وقد تمتّع اليهود في كل العصور بحياة متسامحة وبعدالة ومساواة بوصفهم مواطنين، وبعد الاستقلال كان منهم الوزراء والموظفون والنواب وأنشأوا عام 1956م رابطة الرفاق.

لماذا عاش عشرات الآلاف من اليهود في المنطقة العربية دون أن تمارس ضدهم أية انتهاكات، لسبب بسيط، كان المجتمع ينظر إليهم أولاً كمواطنين وثانياً كأصحاب كتاب أي كإقليّة دينية لها حقوقها.

وفي الوقت الذي كان اليهود العرب يعيشون مطمئنين متساوين في بلدانهم العربية كان اليهود في أوروبا، قبل مرحلة التسامح، يعانون الاضطهاد الطائفي مسجونين في الغيتو. فالغيتو والنزعة للأسامية ظاهرتان أوروبيتان لم يشهد الوطن العربي لهما مثيلاً، ولقد جلبت الحركة الصهيونية الويل لهؤلاء اليهود فاقتلعتهم من أوطانهم وبيوتهم وتجارتهم وحرفهم، لتزويدها بقوة العمل والعدد المطلوب لإنشاء الدولة العنصرية، أمّا الصهيونية فهي ظاهرة أوروبية، كما قلنا، لم تنشأ في الوطن العربي. إنّها أيديولوجيا وليست ديناً أيديولوجياً وظّفت المقدّس الديني لتحقيق مآربها العنصرية والاستيلاء على فلسطين، فكيف لنا ألاّ نتميّز بين اليهودي والصهيوني، أتى للعربي الذي لم يعيش تناقضاً طائفيّاً مع اليهود أن يساوي بين معتنق اليهودية ومعتنق الصهيونية.

ولأنّ العربي ينطلق من حقيقة واقعة ألا وهي حقيقة اختلاف اليهودي عن الصهيوني فإنه يرى في اليهود الإنسانيين الأوروبيين جماعة تقف إلى جانبه. ففي عالم الثقافة العربية الراهنة يحتلّ اسبينوزا وماركس وداروين وفرويد وأنشتين ومكسيم رودنسون ونعوم تشومسكي وغيرهم وغيرهم مكانة مرموقة. والعربي لا يضيف على الصهيونية شيئاً من عنده إطلاقاً، لا على المستوى الأيديولوجي ولا على مستوى الممارسة. فنقاوة العرق، وشعب الله المختار، وفراة التاريخ والعودة والخلاص إنّما هي مفاهيم الأيديولوجية الصهيونية المتعيّنة بعشرات الخطابات الزائفة واستعمار الأرض واحتلال فلسطين وارتكاب المجازر وطرد السكان الأصليين والممارسات

الهمجية اللاإنسانية، كلّها وقائع فذّة قلّ نظيرها في عالمنا الراهن. هل يريد الصهيوني منّا أن نحبّ الصهيونية وأن لا نرى ولا يرى العالم فيها حركة عنصرية. هل يريد ننتياهو من 5,5 ملايين لاجئ ومليونين تحت الاحتلال أن يعلنوا أن الصهيونية حركة تحرر قومي؟.

هل يريد الصهيوني أن ينظر العربي إلى إسرائيل التي قامت على حساب احتلال الأرض من مصر وسوريا والأردن ولبنان على أنها دولة ذات أيديولوجية إنسانية؟ هل يريد الصهيوني أن يقنع العربي الذي عاش في فلسطين دون انقطاع منذ فتح فلسطين في القرن السابع وحتى القرن العشرين أنّ لا حقّ له في هذا الوطن، هذا ناهيك عن أنّ أجدادنا الكنعانيين قد سكنوا فلسطين قبل أن يطأها العبرانيون؟.

أجل نحن لم نخترع عنصرية الصهيونية اختراعاً إنّما العنصرية لسان حالها: إنها الصورة الأخرى للنازية، لا بأس هنا نجري المقارنة التالي بين الخطابين الصهيوني والنازي.

يقول هتلر: «نحت الإشتراكيين القوميين محافظون على القيم الآرية على هذه الأرض ومن هنا ندرك لماذا يقع على عاتقنا عبء كبير» أما همام فيقول: «إن الأمة اليهودية التي اختارها الله والمنتشرة في أصقاع العالم تملك رسالة خاصة».

يقول هتلر: «إننا نقود الصراع من أجل وجود عرقنا وشعبنا وانتشاره، نقود الصراع كي يتمكن شعبنا - وبشكل عملي - من أن يحقق تلك الرسالة التي حملها إياه خالق الكون».

أما ناحوم ساكلو فيقول: «يعتبر اليهود - دون شك - أكثر العروق سموّاً وعظمة من جميع الأمم الحضارية في العالم».

ويؤكّد ماسك ما يلي: «إنّ اليهود يملكون همّة عالية، وخصائص عظيمة أكثر من الأوروبي المتوسط، ودون أن نذكر أولئك الآسيويين أو الأفارقة الخاملين...».

أما هتلر فيقول: «لست على ثقة من أنّ هذه التي تسمّى قوميات مضطهدة «الهند ومصر» والمندرجة تحت العروق السفلى، قادرة على أن تقهر إنكلترا، ولا أريد لشعبي أن يوحد مصيره مع مصائر هذه القوميات».

يقول بن غوريون: «لقد قلّدنا التاريخ صفات نادرة - أخلاقية وعلمية وهذا هو الذي يعطينا الحق بأن نكون شمعة وسط القوميات الأخرى».

أما هتلر فيقول: «الآري هو بروميث الإنسانية التي منح رأسه العبقري من قبل الإله، ولهذا له الحق أن يشعل النار الأولى للعقل الإنساني».

وأعلن رافين غاسير في مؤتمر للصهيونيين قائلاً: «إن طموحاتنا ومثلنا تختلف عن طموحات ومثل العالم كله، ولهذا فنحن مختلفون عن الآخرين وأقول بحماس نحن فوق جميع العالم ولا يمكن لواحدة منها أن تقارن بنا».

يصرّح الصهيوني قائلاً: الشعب اليهودي شعب سام وظاهرة تاريخية فريدة..

الخير صفة الإنسان الأعلى القومية الأعلى والتي تملك القوة من أجل إغناء حياتها التي تملك الإرادة في أن تصبح سيّدة الكون ودون أن تحسب حساباً كم سيكلف هذا غالباً وجماهير الموجودات السفلى، الشعوب السفلى دون أن تحسب حساب الكوارث التي سيتعرضون لها من جرّاء ذلك..

ويردّد النازي هتلر هذا الصراخ حين يقول: «في ما يتعلق بالشعب الألماني فيجب القول: إن ألمانيا لا يمكن أن تحقّق أهدافها إلا بوصفها دولة عظيمة عالية، يجب أن نمضي قدماً إلى الأمام في الحقّ في اكتساب أرض جديدة ليس حقاً فقط بل هو واجب، فبدون أرض جديدة يحكم على الشعب العظيم بالموت، لا سيّما عندما يتعلّق الأمر بالشعب الألماني العظيم لا «بالشعب الزنجي»».

ويقول جابوتنسكي: «فلسطين يجب أن تكون لليهود، واستخدام الوسائل الضرورية لإقامة دولة يهودية عنصر مهم ولازم في سياستنا، يعي العرب الآن ما سنصنع بهم وماذا نطلب منهم يجب أن نخلق أمراً واقعاً، يجب أن يفهم العرب أنّ عليهم أن يغادروا أرضنا وينزحوا إلى الصحراء». ويعيد مناحيم بيغن ما علّمه إياه أستاذه فيقول: «إذا ما اتّجهنا نحو الشمال نجد الأرض الخصبة لسوريا ولبنان. وإلى الشرق منها تنبسط أودية الفرات ودجلة ونفط العراق وفي الغرب بلد المصريين، ولن تكون لنا إمكانية لتتطوّر دون أن نحل مشكلاتنا الإقليمية من منطلق القوة لنجبر العرب على الخضوع».

وعلى الوتر نفسه يعزف هتلر: «طبعاً لا أحد يعطينا بإرادته إذاً فنحن على حق في استخدام القوة من أجل الحفاظ على قوميتنا مهما كانت النتائج - يجب أن نستخدم القوة للحصول على ما لا يمكن الحصول عليه إلاّ بها».

هذا هو الخطاب الصهيوني بشحمه ولحمه، فما وجه الغرابة في النظر إلى الصهيونية بوصفها حركة عنصرية، وبالتالي ليس النظر إلى الصهيونية كحركة عنصرية اتّهاماً كاذباً أو نكتة تافهة كما يرى ننتياهو أو نزعة لا سامية، والحق أن اللاسامية الآن هي واحدة من أكثر الأكاذيب وقاحة، يقول الصهيوني العنصري بعد خمسين سنة: يبدو التشهير بوصف الصهيونية بالعنصرية هو نفس التشهير الذي أشاعته النازية ونفس تلك اللاسامية، ولكن برداء جديد، إن اللاسامية لم تختف من العالم بعد كارثة بل أصبحت أكثر خدراً في استخدام المصطلحات القديمة التي تثير الإرتباك اليوم.. وبما أنه لا توجد في أيامنا هذه أسوأ من كلمة عنصري تستخدم هذه الكلمة بدلاً من كلمات الإساءة القديمة مثل قتلة المسيح المرابي المتآمر الدولي».

ولكن لماذا تظهر نزعة لاسامية عند العرب الساميين. ماذا يقول الصهيوني عن اليهود الناقدين للصهيونية؟

«نحن منظمة ترفض الصهيونية وطموحها إلى القوة لأنها بهذا ستكون القارة قبور لشعبنا» (المنظمة اليهودية العالمية).

لقد دخلت الحركة الصهيونية، سلف إسرائيل الإيديولوجي وحجر أساسها حالة من الأزمة تقترب من الانهيار - وليم تسوكرمان «من يكمن لليهود شراً فما عليه اليوم إلا أن يتمنى لهم شيئاً واحداً هو أن تظل دولة إسرائيل قائمة وأن تمضي الصهيونية قدماً في خلق الاضطرابات مع اليهود في العالم كله». «هرمان ديبون».

«إلى متى يريد هؤلاء المتعصبون للصهيونية أن يمشوا في تشويه موقف اليهود في العالم لصالح مطالبهم الخيالية القومية» (ماكوب باتكن).

أنا لا أوصف بأنني مناهض للصهيونية فحسب - ولا أعتقد أن هناك كثيرين يفوقونني مناهضة للصهيونية - بل إن أقول، إن التحالف مع الصهيونية أمر رديء جداً من الناحية السياسية.

يجب تجريد اليهود الإسرائيليين من صفاتهم الصهيونية وستحذو حذوهم طبيعة الدولة مهما كانت.

أجل، فإن إسرائيل الصهيونية والحركة الصهيونية سيسببان كارثة لا لليهود الإسرائيليين فحسب، بل ستحل الكارثة باليهود في العالم كله لا يعني مجرد تجريدهم من إنسانيتهم أيضاً، فالصهيونية تحوّل اليهود في جميع أنحاء العالم إلى خدمة الرجعية لا للرجعية الإسرائيلية فحسب، بل وللرجعية العالمية كذلك «إسرائيل شاحك».

كل ما قيل قيل على لسان يهود يجعلهم لا ساميين أيضاً؟ أنا وقد رأينا وجه الشبه الشديد بين النازية والصهيونية، لنرى أن من هو ضد النازية هو منطقياً وبالضرورة ضد الصهيونية، ولا يمكن للمرء أن يكون مادياً للنازية ومؤيداً للصهيونية بنفس الوقت، ففي ذلك خرق للمنطق الصوري والضروري الذي هو منطق التفكير.

إن التاريخ المفترى عليه في الأيديولوجية الصهيونية، لقادر على تحرير نفسه، فمنطقه الذاتي أقوى من أشكال سجنه الأيديولوجية، إذ للوقائع في النهاية لغتها. إن باستطاعة الأيديولوجيا أن تحرف التاريخ مرة، لكن انتقام التاريخ لذاته لا محال واقع.

وإذا كان مازق الواقع يقود إلى مازق الوعي، فإن الخلاص لا يكون إلا بوعي المازق. وأنا لنعتقد أن الصهيونية هي بحد ذاتها مازق وعي شديد. ولهذا فإن تحرر اليهودي من الصهيونية مقدمة ضرورية لتحرير وعيه بذاته وعيه بالآخر، التحرر من الصهيونية تحرر من الوهم الذي أنجب وما زال ينجب الكوارث على المنطقة.

وإذا كان اليهودي في فلسطين يريد حقاً سلاماً يحزّره من فكرة الخوف من المصير الأسود الذي يشكّل هاجسه الأول، فهذا لن يتم إلا إذا تحرر من فكرة تقرير مصير أسود للآخرين.

غير أن تحرر الوعي من الوهم ليس أمراً إرادياً حرّاً فحسب، بل هو ثمرة واقع ينجب وعياً كهذا. أو بكلمة أخرى إن الكفاح الإنساني للفلسطيني وللعربي بعامة هو الذي يوقظ النائمين من سباتهم.